الحج وتهذيب النفوس



تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتَّقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فما أعظم منافع الحجِّ وفوائده، وما أغزر خيراته وبركاته، وما أطيبَ عِبره وعظاته، أمور لا تُحصَى، وفوائدُ جليلةٌ لا تُعدُّ ولا تُستقصَى.

وقد لا يتيسَّر لكثير من الحُجَّاج الوقوفُ على منافع الحجِّ وفوائده ودروسه وعظاته، وحسن الاستفادة منها رغم أهميَّتها الجليلة وآثارها النبيلة عليهم في حياتهم كلِّها.

ولذا رأيتُ من المفيد إخراج هذه الرسالة رغبةً في تحقيق هذا المقصد الجليل والهدف النبيل، وجعلتُها بعنوان: « **الحجُّ وتهذيبُ النفوس** » راجياً من الله وحده أن يتقبَّلها بقبول حسن، وأن يجعلها نافعةً لعباده، إنَّه وليُّ التوفيق والقبول، وهو حسببي ونعم الوكيل.

* * *

١ ـ الحجُّ والإصلاح

إنَّ الحجَّ مدرسةٌ مباركةٌ لتهذيب النفوس وتزكية القلوب وتقوية الإيمان، فمن خلال هذا المنسَك العظيم والشعيرة المباركة يتلقَّى المسلمون الدروسَ العظيمة والعِبَر المؤثِّرة والفوائد الجليلة في العقيدة والعبادة والأخلاق، فهو بحقٍّ مدرسة تربويَّة إيمانيَّة يتخرَّج فيها المؤمنون المتَّقون، وينهل من معينها المبارك عبادُ الله الموفَّقون، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾[١].

ومنافع الحجِّ وفوائده لا يُمكن حصرُها، وعِبَرُه ودروسُه لا يُمكن عدُّها واستقصاؤها، فإنَّ قوله

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

تعالى في الآية: ﴿ مَنَٰفِعَ ﴾ هو جمع منفعة، ونكَّرَ المنافعَ إشارةً إلى تعدُّدها وتنوُّعها وكثرتِها، وشهودُ هذه المنافع أمرٌ مقصودٌ في الحجِّ؛ إذ اللاَّم في قوله: ﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ ﴾ لام التعليل، وهي متعلّقةٌ بقوله: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: إن تؤذن فيهم بالحج يأتوك مشاةً وركباناً لأجل أن يشهدوا منافع الحجِّ، أي: يحضروها، والمراد بحضورهم المنافع حصولها لهم وانتفاعهم بها.

ولهذا فإنَّ من الحريِّ بكلِّ مَن وفَّقه اللهُ لهذه الطاعة ويَسَّر له أداء هذه العبادة أن يكون حريصاً غاية الحرص على تحصيل منافع الحجِّ والإفادةِ من عِبَره وعظاته، إضافة إلى ما يحصله في حجِّه من أجور عظيمة وثواب جزيل ومغفرة للذنوب وتكفير للسيِّئات، فقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: « مَن حجَّ هذا البيتَ فلَم يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أمُّه

﴾ رواه البخاري ومسلم[١]، وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: ﴿ تابعوا بين الحجِّ والعمرة، فإنَّهما ينفيان الفقرَ والذنوبَ كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديد ﴾ رواه النسائي[٢].

وجديرٌ بمَن نال هذا الرِّبحَ وفاز بهذا المَغنم أن يعودَ إلى بلده بحال زاكية ونفس طيِّبة وحياة جديدة مليئة بالإيمان والتقوى، عامرة بالخير والصلاح والاستقامة والمحافظة على طاعة الله عزَّ وجلَّ.

وقد ذكر العلماءُ أنَّ هذا الصلاح والزكاءَ إن وُجدَا في العبد فهو من أمارات الرِّضا وعلامات القبول، فإنَّ مَن حَسُنت حالُه بعد الحجِّ بالتحوُّل من السيِّء إلى الحسن أو من الحَسن إلى الأحسن فإنَّ

---

(١) صحيح البخاري (١٨٢٠)، وصحيح مسلم (١٣٥٠).
(٢) سنن النسائي (١١٥/٥)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٢٩٠١).

ذلك دليلٌ على حسن انتفاعه بحجِّه؛ إذ إنَّ من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾[١]، فمَن أحسن في حجِّه واجتهد في تَتميمه وتكميله، وابتعد عن نواقصه ومفسداته خرج منه بأحسن حال، وانقلب إلى أطيبِ مآل.

وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: « الحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلاَّ الجنَّة »[٢]، وما من ريب أنَّ كلَّ حاجٍّ يطمع ويؤمِّل أن يكون حجُّه مبروراً وسعيُه مشكوراً وعملُه صالحاً مقبولاً، والعلامةُ الواضحةُ لبرِّ الحجِّ وقبوله أن يكون المرءُ قد أدَّاه خالصاً لوجه الله، موافقاً لسنَّة رسول الله ﷺ، فإنَّ هذين شرطان لا قبول لأيِّ عمل من الأعمال إلاَّ بهما،

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

(٢) صحيح مسلم (١٣٤٩).

وأن تكون حالُه بعد الحجِّ خيراً منها قبله.

فهاتان علامتان على القبول: علامةٌ تكون في أثناء الحجِّ وهي أن يأتي به صاحبُه خالصاً لوجه الله موافقاً لسنَّة رسوله ﷺ، وعلامةٌ تكون بعد الحجِّ وهي صلاحُ حال الإنسان بعد الحجِّ بأن يزيد إقبالُه على الطاعات واجتنابُه للمعاصي والذنوب، وأن يبدأ حياةً طيبةً معمورةً بالخير والصلاح والاستقامة.

وينبغي التنبُّه هنا إلى أنَّ المسلمَ لا سبيل له إلى أن يجزم بقبول عمله مهما أجاد فيه وأحسن، قال الله تعالى في بيان حال المؤمنين الكُمَّل وشأنِهم فيما يتقرَّبون به إلى الله من طاعات: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠** ﴾[1] أي: يعطون من أنفسهم ما أمروا به من عبادات من صلاة وزكاة وحج وصيام وغير ذلك، وهم خائفون عند

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

عرض أعمالهم على الله وعند وقوفهم بين يدي الله من أن تكون أعمالُهم غيرَ منجيةٍ وطاعاتُهم غيرَ مقبولة.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: ((قلت يا رسول الله ﷺ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ أهو الرَّجل يزني ويشرب الخمر؟ قال: لا يا بنت أبي بكر، أولا يا بنت الصديق، ولكنَّه الرَّجل يصوم ويصلّي ويتصدَّق وهو يخاف أن لا يُقبل منه))(١).

قال الحسن البصري رحمه الله: ((إنَّ المؤمنَ جمع إحساناً وشفقةً، وإنَّ المنافقَ جمع إساءةً وأمناً))(٢).

---

(١) المسند (٢٥٧٠٥).
(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٩٨٥).

وقد مضت السنَّة بين المؤمنين في قديم الزمان وحديثه أن يقول بعضُهم لبعض عقب هذه الطاعة: تقبَّل الله منَّا ومنكم، فالكلُّ يرجو القبول[١]، وقد ذكر الله في القرآن الكريم أنَّ نبيَّه إبراهيم وابنَه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام كانا يدعوان بهذا الدعاء عند بنائهما للكعبة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ

---

(١) قال ابن بطة في كتاب الإبانة (٨٧٣/٢): ((... وكذلك يقول من قدم من حجِّه بعد فراغه من حجِّه وعمرته وقضاء جميع مناسكه إذا سئل عن حجِّه إنَّما يقول: قد حججنا ما بقي غير القبول، وكذلك دعاء الناس لأنفسهم ودعاء بعضهم لبعض: اللَّهمَّ تقبَّل صومَنا وزكاتَنا، وبذلك يلقى الحاجُّ فيُقال له: قبل اللهُ حجَّك وزكى عملَك، وكذا يتلاقى الناس عند انقضاء شهر رمضان، فيقول بعضُهم لبعض: قبل الله منَّا ومنكم، بهذا مضت سنَّة المسلمين، وعليه جرت عادتهم، وأخذه خلفُهم عن سلفهم)).

ﭐلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[١]، فهما في عمل صالح جليل وهما يسألان الله أن يتقبَّل منهما، روى ابن أبي حاتم عن وُهيب بن الورد أنَّه قرأ هذه الآية ثم بكى، وقال: ((يا خليل الرحمن، ترفع قوائمَ بيت الرحمن وأنت مشفقٌ أن لا يقبل منك))[٢].

فإذا كان هذا شأنَ إمامِ الحنفاء وقدوةِ الموحِّدين فكيف الشأن بمَن دونه.

نسأل الله للجميع القبول والتوفيق والسداد، وأن يكتب لحُجَّاج بيت الله الحرام السلامة والعافية، وأن يتقبَّل منَّا ومنهم صالح الأعمال، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل، إنَّه جوادٌ كريم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، كما في تفسير ابن كثير (٢٥٤/١) طبعة الشعب.

* * *

٢ ـ الحجَّ والاستجابة لله

إنَّ الحجَّ طاعةٌ عظيمةٌ وعبادةٌ جليلةٌ، فيها تحقيقٌ للعبودية وكمالٌ في الذّلِّ والخضوع والانكسار بين يدي الربِّ عزَّ وجلَّ، فالحاجُّ يخرج من ملاذ الدنيا ومحابِّها مهاجراً إلى ربِّه سبحانه، تاركاً مالَه وأهلَه وعشيرَتَه، متغرِّباً عن بيته ووطنه، متجرِّداً من ثيابه المعتادة لابساً إزاراً ورداءاً، حاسراً عن رأسه، متواضعاً لربِّه، تاركاً الطيبَ والنساءَ، متنقّلاً بين المشاعر بقلبٍ خاشع وعين دامعة ولسان ذاكر، راجياً رحمة ربِّه، خائفاً من عذابه، وشعارُه في ذلك كلّه (لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيك) أي: إنَّنِي خاضعٌ لك يا ربِّ مستجيبٌ لندائك منقادٌ لحُكمك، ممتثلٌ لأمرك.

والتلبيةُ شعارُ الحجِّ، فالمسلمُ يبدأ أعمالَ الحجِّ بالتلبية ويَمضي إلى مكة ملبِّياً إلى أن يصلَ إلى

البيت ويشرع في الطواف، ثم هو يُلبِّي كلَّما انتقل من ركن إلى ركن، ومن منسك إلى آخر، فإذا سار إلى عرفة لَبَّى، وإذا سار إلى المزدلفة لَبَّى، وإذا سار إلى منى لَبَّى حتى يرمي جمرة العقبة فيقطع التلبية، فالتلبيةُ شعارُ الحجِّ والتنقل في أعمال المناسك.

وكم لهذا من أثر مبارك على المسلم في تزكية نفسه وإصلاحها ومعالجة تقصيرها في أوامر الله والقيام بحقوقه سبحانه.

أليس الواجب على المسلم أن يكون دائماً ملبِّياً نداء الله، مستجيباً لأمره، منقاداً لحُكمه، أليس الواجب على المسلم أن يكون شأنه في كلِّ طاعة أن يُلبِّي نداء الله وأن يستجيب لأمره.

فقد أمر الله عبادَه بالصلاة والزكاة والصيام والصدق والوفاء والأمانة والبرِّ والإحسان، ونهاهم عن الزنى والقتل وشرب الخمر والكذب والغشِّ

والخيانة، فما شأن المسلم مع هذه الأوامر والنواهي، هل هو مُلبٍّ أمر الله قائمٌ بطاعته سبحانه، أو أنَّه متلقٍ ذلك بالفسق والعصيان.

إنَّ حقيقة الإسلام الاستسلامُ لله بالتوحيد والانقيادُ له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[1].

وقوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ ﴾ أي: الإسلام بامتثال شرع الله وطاعة أمره، وقوله ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ أي: جميعاً، قال مجاهد: ((أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر))[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٦١/١).

فهو سبحانه أمرهم بجميع شُعَب الإيمان وشرائع الإسلام، وهي كثيرة ما استطاعوا منها، كما قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾[١]، وفي الحديث: ((إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)).

والآيات في الأمر بالاستسلام لله وتلبية ندائه وامتثال أوامره والتزام طاعته كثيرةٌ جدًّا.

فيا مَن أمرك اللهُ بالحجِّ فلبَّيتَ النداءَ وجئتَ ميمماً بيته العتيق ترجو رحمتَه وتخاف عقابه، كيف حظُّك مع بقيَّة الأوامر، كيف شأنك مع الصلاة التي هي عماد الدِّين وأعظم أركانه بعد الشهادَتَين، كيف شأنك

مع الصيام، كيف شأنك مع الزكاة، كيف شأنك في البُعد عن النواهي وترك المحرمات، إن كنتَ

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.

ممتثلاً فاحمد الله واسأله المزيدَ، وإن كنتَ مفرِّطاً مضيِّعاً فحاسب نفسك قبل أن تُحاسَب في يوم الوعيد،

فإنَّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حسابٌ ولا عمل، حيث يقول تعالى في الحديث القدسي: ((يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوَفِّيكم إيَّاها، فمَن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومنَ إلاَّ نفسه))(١).

إنَّ الناسَ مع الأوامر والنواهي ينقسمون إلى أحوال: منهم من يستجيب إلى فعل الطاعات ويَكفُّ عن ارتكاب المعاصي، وهذا أكملُ أحوال أهل الدِّين، وأفضل صفات المتَّقين، ومنهم مَن يمتنع عن فعل الطاعات ويُقدِم على ارتكاب المعاصي، وهذا

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧).

أخبثُ أحوال المكلَّفين وهو يستحقُّ عذاب اللاَّهي عن فعل ما أُمر به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدَم عليه من معاصيه، ومنهم مَن يستجيب إلى فعل الطاعات ويُقدِم على ارتكاب المعاصي، فهذا يستحقُّ عذاب المجترئ؛ لأنَّه تورَّط بغلبة الشهوة على الإقدام على المعصية، ومنهم مَن يمتنع من فعل الطاعات ويَكفُّ عن ارتكاب المعاصي، فهذا يستحقُّ عذاب اللاَّهي عن دينه.

والواجب على المسلم أن يكون ناصحاً لنفسه محافظاً على طاعة ربِّه ممتثلاً أمره مبتعداً عن نهيه صابراً محتسباً.

قال أحدُ السَّلف: ((إنَّا نظرنا فوجدنا الصبرَ على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذابه))، وقال آخر: ((اصبروا عباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه، واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه)).

وكم يحتمي الإنسان في هذه الحياة الدنيا من أمور يخشى أن تضرَّ بدنَه أو تؤثِّرَ على صحَّته، ومع ذلك لا يحتمي من أمور تفضي به إلى عقاب الله وتؤول به إلى عذابه.

قال ابن شبرمة: ((عجبتُ لِمَن يحتمي من الطيِّبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار)).

وقال حماد بن زيد: ((عجبتُ عمَّن يحتمي من الأطعمة لمضرَّاتها كيف لا يحتمي من الذنوب لمعرَّتها))[(١)].

وتأمَّل أخي الملبِّي الموفَّق جميعَ ما سبق، وتأمَّل معه وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لمعاشر الملبِّين، ففي الترمذي وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله

---

(١) انظر فيما سبق أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص:١٠٣ ـ ١٠٤).

ﷺ يخطب في حجَّة الوداع، فقال: « اتَّقوا الله ربَّكم، وصَلُّوا خمسَكم، وصوموا شهرَكم، وأدُّوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنَّة ربِّكم »، وقال الترمذي: « هذا حديث حسن صحيح »، ورواه الحاكم وقال: « صحيح على شرط مسلم »، ووافقه الذهبي(١).

وإنَّا لنسأل الله جلَّ وعلا أن يجعلنا وإيَّاكم من الملبِّين نداءه سبحانه حقًّا وصدقاً، وأن يُلهمنا رشد أنفسنا، وأن يوفِّقنا لطاعته إنَّه سميع مجيب.

* * *

---

(١) سنن الترمذي (٦١٦)، والمستدرك (٩/١).

٣ ـ الحجُّ والذِّكر

لقد شرع الله لعباده الحجَّ لإقامة ذكره سبحانه، فالذِّكرُ هو مقصودُ الحجِّ بل هو المقصودُ في جميع الطاعات، فما شُرعت العبادات إلاَّ لأجله وما تقرَّب المتقرِّبون إلى الله بمثله، والحجُّ كلُّه ذِكرٌ لله.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾[١].

فتأمَّل هذه الوصيَّة العظيمة والأمر الكريم بملازمة ذكر الله عزَّ وجلَّ في جميع مقامات الحجِّ في الوقوف بعرفة أمرَ بالذِّكر وعند المشعر حرام

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٩٨ ـ ٢٠٣.

أمر بالذِّكر، وعند نحر الهدي أمرَ بالذِّكر، وفي أيَّام التشريق أمر بالذِّكر، فالذِّكرُ هو مقصود هذه الأعمال، بل إنَّها لم تشرع إلاَّ لإقامة ذكره سبحانه.

وقد روى أبو داود وغيرُه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال:

((إنَّما جُعل الطوافُ بالبيت، والسعيُ بين الصفا والمروة ورميُ الجمار لإقامة ذكر الله عزَّ وجلَّ))[1].

وفي هذا دلالةٌ على علو شأن الذِّكر ورفعة منزلته وجلالة قدره، وأنَّه مقصودُ العبادات ولبُّها، وقد

قال الله عزَّ وجلَّ في شأن الصلاة ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) سنن أبي داود (١٨٨٨)، وسنن الترمذي (٩٠٢)، وقال: ((حسن صحيح)).

لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾[1] أي: أقم الصلاةَ لأجل ذكر الله جلَّ وعلا، وسَمَّى سبحانه الصلاةَ ذكراً وذلك في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[2]؛ لأنَّ ذكرَ الله روحُها ولبُّها وحقيقتُها، وهكذا شأن الذِّكر في جميع العبادات، وأعظم الناس أجراً في كلِّ عبادة أعظمُهم فيها ذكراً لله عزَّ وجلَّ.

روى الإمام أحمد والطبراني من طريق عبد الله ابن لهيعة قال: حدَّثنا زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنَّ رجلاً سأله فقال: أيُّ الجهاد أعظمُ أجراً يا رسول الله، فقال: « أكثرُهم لله تبارك وتعالى ذكراً، قال: أيُّ

---

(١) سورة طه، الآية: ١٤.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٩.

الصائمين أكثرهم أجراً؟ قال: ((أكثرُهم لله ذكراً، ثم ذكر لنا الصلاة والزكاة والحجَّ والصدقة كلُّ ذلك رسول الله ﷺ يقول: أكثرهم لله ذكراً، فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكلِّ خير، فقال رسول الله ﷺ: أجل))[1].

قال الهيثمي: ((وفيه زبَّان بن فائد وهو ضعيف، وقد وُثِّق وكذلك ابن لهيعة))[2].

لكن للحديث شاهد مرسلٌ بإسناد صحيح رواه ابن المبارك في الزهد قال: أخبرني حيوةُ، قال: حدَّثني زُهرة بن معبد أنَّه سمع أبا سعيد المقبُري يقول: ((قيل: يا رسول الله، أيُّ الحاجِّ أعظمُ أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً، قال: فأيُّ المصلِّين أعظم

---

(١) المسند (١٥٦١٤)، والمعجم الكبير للطبراني (٢٠/ رقم:٤٠٧).

(٢) مجمع الزوائد (١٠/٧٤).

أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً، قال: فأيُّ الصائمين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً، قال: فأيُّ المجاهدين أعظم أجراً؟ فقال: أكثرهم لله ذكراً))، قال زُهرة فأخبرني أبو سعيد المقبُري أنَّ عمرَ بن الخطاب قال لأبي بكر: ((ذهب الذاكرون بكلِّ خير))[١].

وله شاهد آخر أورده ابن القيم في كتابه الوابل الصيب قال: وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلاً: ((أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئل: أيُّ أهل المسجد خير؟ قال: أكثرُهم لله ذكراً عزَّ وجلَّ، قيل: أيُّ أهل الجنازة خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قيل: فأيَّ المجاهدين خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قيل: فأيُّ الحُجَّاج خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ

(١) الزهد (١٤٢٩).

وجلَّ، قيل: فأيُّ العوَّاد خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قال أبو بكر: ذهب الذاكرون بالخير كلِّه))[١].

قال ابن القيم رحمه الله: ((إنَّ أفضلَ أهل كلِّ عمل أكثرُهم فيه ذكراً لله عزَّ وجلَّ، فأفضلُ الصُّوَّام أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ في صومهم، وأفضلُ المتصدِّقين أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، وأفضلُ الحُجَّاج أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، وهكذا سائر الأعمال))[٢].

فإذا علمتَ ذلك فلتحرص على ملازمة ذكر الله في جميع الطاعات؛ في صلاتك وصيامك وحجِّك وجميع عباداتك، فإنَّ أجرَك في كلِّ عبادة بحسب ذكرك لله فيها.

---

(١) الوابل الصيب (ص:١٥٢).
(٢) الوابل الصيب (ص:١٥٢).

فالذِّكرُ أجلُّ الطاعات وأعظمُ العبادات، وثمارُه على أهله كثيرة لا تُحصَى، ومن أجَلِّ ثماره أنَّه وسيلةٌ مباركة لحياة القلب وتهذيب النفس وتزكية الفؤاد، وهو يجلب لقلب الذَّاكر الفرح والسرور والراحة، ويورث القلب السكون والطمأنينة، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[١] وهو شفاءٌ للقلب ودواءٌ لمرضه ومُذْهِبٌ لقسوته، وفي القلوب قسوةٌ لا يُذيبُها إلاَّ ذكرُ الله تعالى، جاء رجلٌ إلى الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وقال: «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أَذِبْه بالذِّكر»[٢].

وبذكر الله تتيسَّرُ الأمور وتتسهَّل الصِّعابُ، فما

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب (ص:١٤٢).

دُكر الله على صعب إلاَّ هان ولا على عسير إلاَّ تيسَّر ولا مشقَّة إلاَّ خفَّت ولا شدَّة إلاَّ زالت، ولا كُربة إلاَّ انفرجت.

جعلنا الله وإيَّاكم من الذَّاكرين وجنَّبنا سبيل الغافلين، إنَّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٤ ـ الحجُّ والتوكُّل

إنَّ الحجَّ رحلةٌ مباركةٌ وسفرٌ عظيمٌ إلى خير الأراضي وأشرف البقاع استجابةً لله ورغبة في ثوابه وأملاً في نيل عظيم موعوده وجزيل نواله ووافر أجره، وهو باب رَحْبٌ لحطِّ الأوزار، وتكفير السيِّئات وزيادة الحسنات، وإقالة العثرات، والعتق من النار.

ومَن يخرج من بيته إلى الحجِّ يخرج معتمداً على ربِّه متوكّلاً عليه مفوِّضاً أمره إليه، طالباً منه وحده العون والتوفيق والهداية؛ لعلمه بأنَّ الأمورَ كلَّها بقضائه وقدَره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، وهو مع هذا يحملُ زادَه معه، ويبذل السبب في نيل رحمة الله وثوابه.

وتأمَّل قول الله عزَّ وجلَّ في سياق آيات الحجِّ

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ ﴾[(١)]، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنَّ ناساً كانوا يخرجون إلى الحجِّ بغير زاد، ويَظنُّون أنَّ هذا حقيقة التوكُّل، ثم يضطرُّون إلى الناس ويحتاجون إلى سؤالهم.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان أهلُ اليمن يَحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناسَ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ ﴾))[(٢)].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل عن معاوية ابن قرَّة قال: ((لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال: مَن أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: بل أنتم المتَّكلون، إنَّ المتوكِّل الذي يلقي حبَّة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(٢) صحيح البخاري (١٥٢٣).

في الأرض ويتوكَّل على الله عزَّ وجلَّ))[١].

إنَّ حقيقة التوكُّلَ هو عمل القلب وعبوديته لله اعتماداً عليه وثقة به والتجاءً إليه وتفويضاً ورضاً بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوَّض أموره إليه، مع القيام بالأسباب المأمور بها والاجتهاد في نيلها وتحصيلها، هذه حقيقة التوكُّل: اعتماد على الله وحده لا شريك له مع فعل الأسباب المأمور بها.

والناسُ في هذا المقام الجليل منقسمون إلى ثلاثة أقسام: طرفين ووسط؛ فأحد الطرفين: عطَّل السبب محافظة على التوكُّل، والطرف الثاني: عطَّل التوكُّل محافظة على السبب، والوسط: علم أنَّ حقيقة التوكُّلَ لا تتمُّ إلاَّ بالقيام بالسبب، فتوكَّل على الله في نفس السبب، وهما أصلان لا بدَّ منهما لتحقيق التوكُّل.

---

(١) التوكل (١٠).

وقد جُمع بين هذين الأصلين العظيمين في نصوص كثيرة كقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ ﴾[١]، وقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾، ونحوهما من الآيات.

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعُك واستعن بالله ولا تعجز»[٢].

فقوله: «احرص على ما ينفعُك» فيه الأمرُ بكلِّ سبب دينيٍّ ودنيويٍّ، بل فيه الأمر بالجدِّ والاجتهاد في ذلك والحرص عليه نيةً وهمَّةً وفعلاً، وقوله «واستعن بالله» فيه الإيمان بقضاء الله وقدره والأمر بالتوكُّل عليه والاعتماد عليه والثقة به سبحانه.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

وروى الترمذي عن أنس بن مالك ﵁ قال: ((قال رجل يا رسول الله أعقلُها وأتوكَّل أو أُطلقها وأتوكَّل، فقال له: اعقلها وتوكَّل))[١]، فأرشده ﷺ إلى الجمع بين الأمرين فعل السبب والاعتماد على الله عزَّ وجلَّ.

وروى الترمذي أيضاً عن عمر بن الخطاب ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((لو أنَّكم توكَّلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطيرَ تغدو خماصاً وتروح بطاناً))[٢]، فذكر الأمرين معاً، فإن غُدُّوَ الطير وهو ذهابُها في الصباح الباكر هو سعيٌ في طلب الرِّزق وجِدٌّ واجتهادٌ في تحصيله.

قيل للإمام أحمد رحمه الله: ما تقول في رجل

---

(١) سنن الترمذي (٢٥١٧).
(٢) سنن الترمذي (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٥٤).

جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجلٌ جهِلَ العلمَ، أما سمع قول النَّبيِّ ﷺ: ((إنَّ الله جعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي))، وقال حين ذكر الطيرَ: ((تغدو خماصاً وتروح بطاناً))[١].

وبهذا يُعلمُ أنَّ التوكُّلَ لا بدَّ فيه من الجمع بين الأمرين فعل السبب والاعتماد على الله عزَّ وجلَّ، أمَّا من عطَّل السببَ وزعم أنَّه متوكِّلٌ فهو في الحقيقة متواكلٌ مغرور، وفعله هذا ما هو إلاَّ عجزٌ وتفريطٌ وتضييع، فلو قال قائل مثلاً: إن قدر لي أدركت العلم اجتهدتُ أو لم أجتهد، أو قال إن قدر لي أولاد حصلوا تزوَّجتُ أو لم أتزوَّج، وهكذا من رجا حصول ثمر أو زرع بغير حرث ولا بذر ولا

---

(١) ذكره ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين (ص:٩٥).

سقي، وهكذا مَن يترك أهلَه وولدَه بلا نفقة ولا غذاء ولا يسعى في ذلك متَّكلاً على القدر، فكلُّ ذلك تضييعٌ وتفريطٌ وإهمالٌ وتواكلٌ.

قال ابن قدامة رحمه الله: «قد يظنُّ بعضُ الناس أنَّ معنى التوكُّل تركُ الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة وكلحم على وضم، وهذا ظنُّ الجُّهَّال، فإنَّ ذلك حرامٌ في الشرع»[١]. اهـ.

أمَّا مَن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسَبِّب معرضاً عنه فهذا توكُّلُه عجزٌ وخذلانٌ ونهايتُه ضياع وحرمان، ولذا قال بعض العلماء:

«الالتفاتُ إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل،

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٦١).

والإعراض عن الأسباب بالكليَّة قدحٌ في الشرع، وإنَّما التوكُّل والرَّجاء معنى يأتلف من مُوجب التوحيد والعقل والشرع)).

إنَّ التوكُّلَ على الله مصاحبٌ للمؤمن الصادق في أموره كلِّها الدينية والدنيوية، فهو مُصاحبٌ له في صلاته وصيامه وحجِّه وبرِّه وغيرِ ذلك من أمور دينه، ومُصاحبٌ له في جلبه للرِّزق وطلبه للمباح وغير ذلك من أمور دنياه.

والتوكُّل أصل لجميع مقامات الدِّين ومنزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلاَّ على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلاَّ على ساق التوكُّل.

جعلنا الله من المتوكِّلين عليه حقًّا، ومن المعتمدين عليه يقيناً وصدقاً، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

٥ ـ الحجُّ والتوبة

إنَّ الحجَّ بابٌ مبارك من أبواب التوبة والإنابة إلى الله والخروج من الذنوب والعتق من النار.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من حجَّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه »[١].

وروى مسلم في صحيحه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لعمرو بن العاص رضي الله عنه عند إسلامه: « أما علمتَ أنَّ الإسلامَ يهدم ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنَّ الحجَّ يهدم ما كان قبله »[٢].

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « العمرةُ إلى العمرة كفَّارةٌ لِما

---

(١) صحيح البخاري (١٨٢٠)، وصحيح مسلم (١٣٥٠).
(٢) صحيح مسلم (١٢١).

بينهما والحجُّ المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنَّة))[١].

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة وأنَّه ليدنو ثم يُباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء))[٢].

وروى النسائي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((تابعوا بين الحجِّ والعمرة، فإنَّهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكيرُ خبث الحديد))[٣].

ففي هذه الأحاديث دلالة على عظم شأن الحجِّ وأنَّه بابٌ عظيمٌ لحطِّ الأوزار وإقالة العثرات

---

(١) صحيح مسلم (١٣٤٩).
(٢) صحيح مسلم (١٣٤٨).
(٣) سنن النسائي (١١٥/٥)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٢٩٠١).

وغفران الذنوب والعتق من النار.

والواجب على المسلم أن يُبادر إلى التوبة إلى الله عزَّ وجلَّ لينال بذلك الفلاح وليحصل وافر الأجر وعظيم الأرباح.

يقول الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾(١)، ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾(٢)، ويقول سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾(٣).

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

والتوبةُ من أنبل الأعمال وأجلّها، وهي من أحبِّ الأعمال إلى الله وأكرمها، وللتائبين عنده محبَّة خاصة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾(١)، بل إنَّه سبحانه يفرح بتوبة التائبين مع أنَّه سبحانه غنيٌّ حميد.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَّه في أرض فلاة))، وفي رواية لمسلم: ((لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيسَ منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلِّها قد أيسَ من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخطامها ثم قال

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

من شدَّة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدَّة الفرح))[١].

وليُعلم أنَّ بابَ التوبة مفتوح مهما بلغ الجُرْمُ وعَظُم الإثمُ، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾[٤].

بل لقد قال جلَّ وعلا في شأن المنافقين: ﴿ إِنَّ

---

(١) صحيح البخاري (٦٣٠٩)، وصحيح مسلم (٢٧٤٧).
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٠.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾[1]، وقال في شأن النصارى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾﴾[2]، وقال في شأن أصحاب الأخدود الذين خدُّوا الأخاديد لفتنة المؤمنين وإضلالهم عن دينهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[3].

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٤٥، ١٤٦.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٧٣، ٧٤.

(٣) سورة البروج، الآية: ١٠.

قال الحسن البصري رحمه الله: ((انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياء الله وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة))[١].

ولهذا لا يحلُّ لأحد أن يقنط الناسَ من رحمة الله مهما بلغت ذنوبُهم وكثرت وتعدَّدت، كما لا يحلُّ له أن يجرأهم على فعل المعاصي واقتراف الذنوب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عزَّ وجلَّ))[٢].

وعلى العبد أن يُبادر إلى التوبة وأن يُسارع إلى تحقيقها، قبل فوات الأوان، قال ﷺ: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر)) رواه

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٩٣/٨).
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٩٩/٧).

الترمذي[١]، وقال ﷺ: ((من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه)) رواه مسلم[٢].

والواجب كذلك أن يتوب العبد من كلِّ ذنب وأن يستوفي شروط التوبة لتكون توبتُه مقبولةً.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في كتابه العظيم رياض الصالحين: ((قال العلماء: التوبة من كلِّ ذنب، فإن كانت المعصيةُ بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلَّق بحقِّ آدميٍّ فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يُقلعَ عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً.

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٣٧)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٩٠٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٧٠٣).

فإن فُقد أحدُ الثلاثة لم تصح التوبةُ، وإن كانت المعصيةُ تتعلَّق بآدميٍّ فشروطها أربعة، هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حقِّ صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه ردَّه إليه، وإن كان حدَّ قذف ونحوه مكَّنه أو طلب عفوَه، وإن كانت غيبة استحلَّه منها، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحَّت توبتُه عند أهل الحقِّ من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي))[١]. اهـ.

ونسأل الله أن يَمُنَّ على الجميع بالتوبة النَّصوح، وأن يتقبَّل توبتَنا، وأن يغسل حوْبَتنا، وأن يجيب دعوتنا إنَّه سميع مجيب.

---

(١) رياض الصالحين (ص:٧).

* * *

٦ ـ لباس الإحرام والتذكير بالأكفان

إنَّ عِبَرَ الحجِّ وفوائدَه لا تُحصَى، وكم فيه من الدروس النافعة والعِظات المؤثِّرة، ومن عظات الحجِّ وعبَره أنَّ المسلمَ إذا وصل إلى الميقات الذي وقَّته رسول الله ﷺ للإحرام تجرَّد من ثيابه ولبس إزاراً على نصفه الأسفل، ورداءاً على نصفه الأعلى مِمَّا دون الرأس، وفي هذه الهيئة من اللباس يستوي الحُجَّاج، لا فرق بين الغنيِّ والفقير والرئيس والمرؤوس، وتساويهم في هذا اللباس يذكِّرُ بتساويهم جميعاً في لباس الأكفان بعد الموت، فإنَّ الكلَّ يُجَرَّدون من ملابسهم ويلفُّون بلفائف بيضاء لا فرق فيها بين غنيٍّ وفقير.

روى الإمام أحمد في مسنده عن سمُرة بن جندب رضي الله عنه أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: « البسوا الثياب

البيض، فإنَّها أطهرُ وأطيبُ، وكفِّنوا فيها موتاكم))[(١)].

ولَمَّا مات سيِّدُ ولد آدم ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب يمانيَّة بيض سَحوليَّة من كُرْسُف، ليس فيهنَّ قميصٌ ولا عمامة))[(٢)].

وكلُّ مَن مات فهذا شأنه؛ يُغسَّل ويُجرَّد من ملابسه، ويُلفُّ بلفائف بيضاء، ثم يُصلَّى عليه، ثم يدرج في القبر.

والحاجُّ عندما يتجرَّد من لباسه في الميقات ويلبس الإحرام يتذكَّرُ هذه الحال ويتواردُ على ذهنه هذا المآل، ويتذكَّر الموتَ الذي به تنتهي الحياة

(١) المسند (٢٠١٥٤).
(٢) صحيح البخاري (١٢٦٤)، وصحيح مسلم (٩٤١).

الدنيوية وتبتدئ الحياةُ الأخرويَّة.

وكم هو عظيم ونافعٌ للعبد أن يتذكَّرَ الرحيل، وأن يتذكَّرَ مفارقة الأنيس والخليل، وأن يتذكَّرَ أنَّه ليس له من ماله إلاَّ الأكفان، أي: نصيبه في قبره من ماله، ثم مآلها إلى الخراب، يقول الشاعر:

نصيبُك مِمَّا تجمعُ الدَّهرَ كلَّه
رداءان تُلوى فيهما وحَنوطُ

ويقول الآخر:

هي القناعةُ لا تبغي بها بدلاً
فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لِمَن مَلَكَ الدنيا بأجمعها
هل راح منها بغير القطن والكَفَن[١].

وقد صحَّ في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال:

(١) انظر الأبيات في التذكرة للقرطبي (٢٨/١).

« أكثروا ذكرَ هاذم اللَّذات » يعني الموت[(١)]، وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: « كفى بالموت واعظاً ».

ومَن تذكَّر الموتَ أقبل على الآخرة ولم تكن الدنيا أكبرَ همِّه ولا مبلغَ علمه، وذِكرُ الموت يردع عن المعاصي ويلين القلبَ القاسي، ويذهبُ الفرح بالدنيا ويهوِّن المصائبَ فيها.

ثم إنَّ كفَنَ الإنسان الذي يدخل معه في قبره لا ينفعه بشيء، ومآله إلى البِلَى، مع أنَّه الشيءُ الوحيد الذي يدخل معه في قبره من دنياه، والذي ينفع الإنسانَ في قبره هو عملُه الصالح، وقد ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: « يتبع الميِّتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقى

(١) سنن الترمذي (٢٣٠٧)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٢١٠).

واحد: يتبع أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجع أهلُه ومالُه، ويبقى عملُه))[(١)].

ومن المعلوم أنَّ الإنسانَ لا بدَّ له من أهل يُؤانسُهم، ومالٍ يعيش به، وهذان مفارقان له وهو مفارقٌ لهما ولا بدَّ، والسعيد من اتَّخذ من ذلك ما يكون عوناً له على الخير والطاعة، وأمَّا مَن اتَّخذ أهلاً ومالاً يشغله عن الله فهو خاسر، كما قالت الأعراب: ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ

---

(١) صحيح البخاري (٦٥١٤)، وصحيح مسلم (٢٩٦٠). وانظر شرح هذا الحديث في رسالة للحافظ ابن رجب مطبوعة بعنوان: جزء فيه الكلام على حديث يتبع الميت ثلاث.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١١.

﴿ ٩ ﴾[١].

ومَن مات فإنَّه لا ينتفع من أهله وماله بشيء إلاَّ بدعاء أهله له واستغفارهم، وبما قدَّمه من ماله بين يديه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾[٣].

فكلُّ ما كان للإنسان من مال وأهل فإنَّه تاركُه وراء ظهره غيرُ منتفع منه بشيء إلاَّ دعوة من أهله أو نفقة قدَّمها من ماله، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: « إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلاَّ من ثلاث: إلاَّ من صدقة جارية، أو

(١)سورة المنافقون، الآية: ٩.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

ولدٍ صالح يدعو له، أو علم يُنتفع به))[(١)].

والأهل قد يدعون له وقد لا يدعون، والمال الذي كان يمتلكه لا ينتفع منه بشيء في قبره إلاَّ بما كان قدَّمه بين يديه، فإنَّه يَقْدَمُ عليه وهو داخلٌ في عمله الذي يصحبه في قبره، وما سوى ذلك من ماله قلَّ أو كثر فهو لورثته لا له، وهو إنَّما كان عليه بمثابة الحارس والخازن.

ففي صحيح مسلم عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبست فأبليتَ، أو تصدَّقتَ فأمضيتَ))[(٢)].

وفي صحيح البخاري عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((أيُّكم

---

(١) صحيح مسلم (١٦٣١).
(٢) صحيح مسلم (٢٩٥٨).

مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا: ما منَّا أحدٌ إلاَّ ماله أحبّ إليه، قال: فإنَّ ماله ما قدَّم، ومالَ وارثه ما أخَّر »[١].

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٢]، قال بعض السَّلف: « أي في القبر » يعني: أنَّ العمل الصالح يكون مهاداً لصاحبه في القبر، حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش ولا وساد ولا مهاد، بل كلُّ عامل يفترش عملَه ويتوسَّده من خير أو شرٍّ[٣].

وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: « قال لي جبريل: يا محمد عِش ما شئتَ فإنَّك ميِّت، وأَحْبب

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٤٢).
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٤.
(٣) انظر رسالة ابن رجب: جزء فيه الكلام على حديث « يتبع الميت ثلاث » (ص:٤٠).

مَن شئتَ فإنَّك مفارقُه، واعمل ما شئتَ فإنَّك مُلاقيه))[١].

نسأل الله لنا جميعاً صلاح الأمر وحسن العاقبة، والتوفيق لما يحبُّه ويرضاه.

* * *

(١) رواه الطيالسي (١٨٦٢)، والحاكم (٣٢٥/٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٥٥).

٧ ـ الحجُّ ومكانة العلماء

إنَّ من الدروس الرائعة التي تظهر لكلِّ متبصِّر في الحج مكانة العلماء ورفعة مقامهم وعلوَّ قدرهم وسُموَّ منزلتهم، فترى الحجيج يسألون عنهم ويَبحثون عن أماكنهم، ويحرصون على التفقُّه عليهم ويطرحون عليهم سؤالاتهم في أمور الحجِّ وغيره، ويغتبطون بسماع أجوبتهم وتوجيهاتهم ونصائحهم.

ولا ريب في رفعة مكانة العلماء؛ إذ هم في الخير قادة، تُقتصُّ آثارُهم، ويُقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، تضع الملائكةُ أجنحتها لهم رضاً بصنيعهم، ويستغفر لهم كلُّ رطب ويابس، حتى الحيتانُ في الماء، بلغ بهم علمُهم منازلَ الأخيار ودرجات المتَّقين الأبرار، فسَمَت به منزلتهم وعلت مكانتهم وعظُمَ شأنهم وقدرهم، كما قال الله تعالى: ﴿

يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾[(٢)].

وبجميل نصحهم وحسن توجيههم وتمام بيانهم يعرفُ الناسُ الحلالَ من الحرام، والهدى من الضلال، والحقَّ من الباطل، قال العلاَّمة الإمام أبو بكر الآجري ـ رحمه الله ـ وهو يتحدَّث عن مكانة العلماء:

((فضَّلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كلِّ زمان وأوان، رفعهم الله بالعلم وزيَّنهم بالحلم، بهم يُعرف الحلالُ من الحرام، والحقُّ من الباطل، والضارُّ من النافع، والحَسَنُ من القبيح، فضلُهم عظيم، وخطرهم جزيل، ورثةُ الأنبياء وقرَّةُ عين الأولياء، الحيتانُ في

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

البحار لهم تستغفر، والملائكةُ بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضلُ من العُبَّاد وأعلى درجة من الزُّهَّاد، حياتُهم غنيمة وموتهم مصيبة، يذكِّرون الغافلَ ويُعلِّمون الجاهل، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة ... » إلى أن قال رحمه الله: « فهم سراجُ العباد ومنار البلاد وقوام الأمَّة وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحقِّ، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وإذا انطمست النجوم تحيَّروا، وإذا أسفر عنها الظلامُ أبصروا »[1]. اهـ.

وإذا كان أهل العلم بهذه المنزلة الرفيعة والدرجة العالية المنيفة، فإنَّ الواجبَ على مَن

---

(١) أخلاق العلماء (ص:١٣ ـ ١٤).

سواهم أن يحفظَ لهم قدرَهم ويعرف لهم مكانتهم وينزلهم منازلهم، قال ﷺ: ((ليس من أمَّتي مَن لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقَّه))[١]، وقال ﷺ: ((أنزلوا الناسَ منازلهم))[٢].

فلا بدَّ من معرفة منزلة العلماء وحفظ حقوقهم؛ حيِّهم وميِّتهم شاهدهم وغائبهم، بالقلوب حبًّا واحتراماً، وباللسان مدحاً وثناءً، مع الحرص على التزوُّد من علومهم والإفادة من معارفهم، والتأدُّب بآدابهم وأخلاقهم، والبعد عن النَّيل منهم، أو اللَّمز لهم، أو الوقيعة فيهم، فإنَّ ذلك من أعظم الإثم وأشدِّ اللُّؤم.

إنَّ العلماءَ هم القادةُ لسفينة النجاة، والروادُ

---

(١) المسند (٢٢٧٥٥)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٥٤٤٤).

(٢) سنن أبي داود (٤٨٤٢).

لساحل الأمان والهداةُ في دياجر الظلام ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِئَايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

وهم حجَّة الله في الأرض، وهم أعلمُ بما يُصلحُ المسلمين في دنياهم وأخراهم؛ لِمَا آتاهم الله من العلم، ولِمَا حباهم به من الفقه والفهم، فهم عن علم ثاقب يُفتون، وببصر نافذ يقرِّرون، وعن نظر بصير يحكمون، لا يُلقون الأحكام جُزافاً، ولا يصدعون صفوف المسلمين فتاً وإرجافاً، ولا يبتدرون إلى الفتاوى دون تحقيق وتدقيق تهاوناً وإسرافاً، ولا يكتمون الحقَّ عن الناس غمطاً لهم أو تكبُّراً واستنكافاً.

ولهذا أمر الله بالردِّ إليهم دون سواهم وسؤالهم

---

(١)سورة السجدة، الآية: ٢٤.

دون غيرهم، قال الله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾[٢]، وهذا فيه تأديبٌ للمؤمنين بأنَّه ينبغي لهم إذا جاءهم أمرٌ من الأمور المهمَّة والمصالح العامة مِمَّا يتعلَّق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبَّتوا ولا يستعجلوا، وأن يردُّوا ذلك إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ العلم والنُّصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدَّها، فمَن صدر عن رأيهم سلم، ومن افتات عليهم تضرَّر وأثِم.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.

وإنَّ من علامات الضياع البعدَ عن العلماء الراسخين، وتركَ التعويل على فتاوى الأئمَّة المحقّقين، ونزعَ الثقة بالفقهاء المدقّقين.

وحين تفقد الأمَّةُ الثقة بالعلماء يُصبح شأنُها كأناس في صحراء قاحلة بلا قائد ناصح يقودهم ولا هادٍ خرِّيت يدلُّهم، فيؤول أمرُهم إلى العَطَب، وتكون نهايتُهم إلى التَّلَف.

فالعلماء هم الذين لهم الصدارةُ في دعوة الأمَّة وتوجيه مسارها وإرشاد يقظتها، وإن لم يكن الأمر كذلك اتَّخذ الناسُ رؤساءَ جُهَّالاً فأفتوهم بغير علم ودلُّوهم بغير فهم، وحينئذ يحلُّ الوهَن ويعظم الخَلَل وتغرق السفينة.

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ((عليكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضُه بذهاب أهله، عليكم بالعلم فإنَّ أحدَكم لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقواماً يزعمون أنَّهم يدعون إلى

كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، وإيَّاكم والتبدُّع والتنطُّع والتعمُّق، وعليكم بالعتيق))[١].

فلعلَّك أيُّها الحاجُّ الموفَّق وأنت ترى حرصَ الناس على الإفادة من العلماء في أحكام الحجِّ، وحرصهم على سؤالهم والإفادة من علومهم تُدرك فضيلة العلماء وحاجة الأمَّة إليهم وإلى علومهم وأهميَّة سؤالهم والاستفادة منهم في جميع أمور الدِّين، وكما أنَّك تستفيد من العلماء في أحكام الحجِّ وتستفتيهم عمَّا يُشكل عليك منها فلتستفد منهم ولتستفتهم في صلاتك وصيامك وزكاتك، وجميع أمور الدِّين؛ لتعبدَ الله على نور وبصيرة.

ونسأل الله الكريم أن يُبارك في علمائنا، وأن يُوفِّقنا لحسن الاستفادة منهم، وأن يجزيهم عنَّا وعن

---

(١) سنن الدارمي (١٤٣).

المسلمين خير الجزاء، إنَّه سميعٌ مجيب.

* * *

٨ ـ الحجُّ والتقوى

لقد أكثر الله عزَّ وجلَّ في آيات الحجِّ على قلَّتها من الوصيَّة بالتقوى؛ لأنَّه يحصل في الحجِّ من أسباب التقوى ما لا يحصل في غيره، وذلك مع الوعي الصحيح لحقيقة الحج ومغزاه، وقد تكرَّرت الوصيَّة بتقوى الله في سياق آيات الحجِّ من سورة البقرة.

ففي الآية الأولى من هذه الآيات قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝١٩٦ ﴾[1]، وفي أثناء هذه الآيات قال سبحانه: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٧ ﴾[2]، وختم جلَّ وعلا آيات الحجِّ بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾[١].

والتقوى هي أعظمُ وصيَّة وخيرُ زاد ليوم المعاد، وهي وصيَّة الله للأوَّلين والآخرين من خلقه، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾[٢]، وهي وصيَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ لأمَّته، فقد كان ﷺ إذا بعث أميراً على سريَّة أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمَن معه من المسلمين خيراً، وكان كثيرَ الوصيَّة بها في خُطبه، ولَمَّا خطب الناسَ في حجَّة الوداع يوم النحر وصَّى الناسَ بتقوى الله، ولم يزل السَّلف الصالح يتواصون بها، وذلك لأنَّها خيرُ زاد يبلغ إلى رضوان الله، ولَمَّا قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتَّق الله، أجابه عمرُ بقوله: « لا خير فيكم إن لم

(١) سورة النساء، الآية: ١٣١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها »، والنقول عن السلف في هذا كثيرة[١].

وللتقوى على أهلها منافعُ عظيمةٌ وثمارٌ كريمةٌ وفوائدُ جَمَّةٌ في الدنيا والآخرة، فمن ثمارها حصولُ العلم النافع، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[٣]، ومن ثمارها الخروج من المحن وتحصيل الرّزق الطيِّب وتيسُّر الأمور، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤ ﴾[٥]، ومن ثمارها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٥) سورة الطلاق، الآية: ٤.

ﱡﭐ ٱلْمُتَّقِينَ ﱠ[1]، و﴿ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2]، ومن ثمارها نيلُ الفلاح والفوزُ بالمغفرة، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]، ومن ثمارها حصولُ الرِّفعة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ ﴾[5]، وحصولُ العاقبة الحميدة، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[6]، ومن أجَلِّ ثمارها دخولُ جنَّة الله والتشرُّف برؤيته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

﴾[1].

وثمارُ التقوى لا تُحصَى، وفضائلُها لا تُستقصى، وأكرمُ الناس عند الله أعظمهم تقوىً له سبحانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[2]،

وتقوى الله جلَّ وعلاَ أن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخافه ويخشاه من غضبه وعقابه وقايةً تقيه، وذلك لا يكون إلاَّ بفعل الأوامر واجتناب النواهي، كما قال الحسن البصري رحمه الله: ((المتَّقون اتَّقوا ما حرَّم الله عليهم وأدَّوا ما فرض عليهم))، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ((ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل مع التخليط فيما بين ذلك، ولكنَّ تقوى الله تركُ ما حرَّم الله وأداءُ ما

(١) سورة القمر، الآيتان: ٥٤، ٥٥.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

افترض الله »، وقال طلق ابن حبيب رحمه الله: « تقوى الله أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله »[١].

وأساسُ التقوى هو القلب، كما قال ﷺ: « التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره الشريف ثلاث مرَّات »[٢]، فمتى أصلح العبدُ قلبَه صلَحَ البدنُ كلُّه تبَعاً لذلك، ومتى خضع القلبُ لطاعة الله خضعت الجوارح، كما قال ﷺ: « ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب »[٣].

---

(١) انظر هذه الآثار في جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:١٤٩).
(٢) صحيح مسلم (٢٥٦٤).
(٣) صحيح البخاري (٥٢)، وصحيح مسلم (١٥٩٩).

والله جلَّ وعلا لا ينظر إلى الصور والأموال، وإنَّما ينظر إلى القلوب والأعمال، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ الله لا ينظر إلى صوَرِكم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[١].

وإنَّ مِمَّا يُعينُ العبدَ على تحقيق التقوى والعناية بها أن يتذكَّر الموتَ والوقوفَ بين يدي الله والجزاءَ والحسابَ والجنَّة والنارَ، ولقد أحسن مَن قال:

فيا عجباً ندري بنارٍ وجَنَّةٍ
وليس لذي نشتاقُ أو تلك نحذرُ
إذا لم يكن خوفٌ وشوقٌ ولا حيا
فماذا بقي فينا من الخير يذكرُ
وليس لِحَرٍّ صابرين ولا بلى

(١) صحيح مسلم (٢٥١٤).

فكيف على النيران يا قوم نصبرُ

نبيـع خطـيراً بالحـقير عِمـايــة

وليس لنا عقـلٌ ولـبٌّ منـورُ

فطوبى لِمَن يؤتى القناعـة والتُّقى

وأوقاتَه في طـاعــة الله يَعــمرُ

إنَّ وصيَّة الله بالتقوى المتكرِّرة في آيات الحجِّ ودعوتَه سبحانه لأولي الألباب إلى تقواه تدلُّ على أنَّ أهلَ العقول والألباب ينبغي عليهم وقد أكرمهم الله بالحجِّ أن يُعملوا عقولَهم وألبابَهم في تلك المشاعر العظيمة ليستفيدوا منها تقوى الله، فالحجُّ مدرسةٌ عظيمةٌ للتقوى وبابٌ عظيمٌ من أبوابها.

والواجب على مَن أكرمه الله بالحجِّ أن يستفيدَ من حجِّه تقوى الله، وأن يتزوَّد فيه بزادها المبارك، وأن ينهل من معينها العذب، وأن يتقي الله بصيانة حجِّه عن الرَّفث والفسوق والجدال، وأن يتقي الله

بحفظ وقته عن كلِّ إسفاف، وأن يشغلَه بذكر الله والنافع من القول، وأن يتقي الله بالحرص على اتِّباع السنَّة ولزوم هدي خير الأمَّة محمد ﷺ، وبالحذر من البدع والأهواء، وأن يتقي الله في مراعاة جميع أعمال الحجِّ من ركن وواجب ومستحبٍّ دون تساهل أو إهمال، وأن يتقي الله بالتفقُّه في دينه والإتيان بعبادته على بصيرة، وأن يتقي الله في إخوانه المسلمين من الحُجَّاج وغيرهم، وأن يكون عوناً لهم على كلِّ خير يلقاهم بطلاقة وجهٍ وصفاء قلب وحسن الحديث، ويتقي الله بتوقير الكبير ورحمة الصغير وتعليم الجاهل وإرشاد الضال، وأن يتقي الله بحفظ لسانه وغضِّ بصره وكفِّ يده، وأن يتقي الله باجتناب الغشِّ والكذب والشُّحِّ والسبِّ والبذاء وسوء الظنِّ.

وكلَّما عظم نصيبُه وحظُّه في حجِّه من التقوى عظم حظُّه ونصيبه من الأجر والثواب، وغفران

الذنوب، كما قال الله تعالى: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾[1] أي: فلا إثم عليه لِحطِّ الله ذنوبَه إن كان قد اتَّقى الله في حجِّه، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه وفعل ما أمره الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلَّفه من حدوده[2].

جعلنا الله جميعاً من المتقين، وسلك بنا صراطه المستقيم، إنَّه سميع مجيب.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.
(٢) جامع البيان للطبري (٣٠٩/٣).

٩ ـ يوم عرفة والتذكيرُ بالموقف يوم القيامة

إنَّ من عبر الحجِّ العظيمة ومواقفه المؤثرة غاية التأثير ذلكم الجمعُ العظيمُ والموقف المباركُ الذي يشهده جميعُ الحُجَّاج في يوم عرفة على أرض عرفة، حيث يقفون جميعاً ملبِّين ومبتهلين إلى الله، يرجون رحمتَه ويخافون عذابَه، ويسألونه من فضله العظيم، في أعظم تجمُّع إسلاميٍّ يُشهد.

وهذا الاجتماع الكبير يذكِّر المسلم بالموقف الأكبر يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأوَّلون والآخرون ينتظرون فصل القضاء ليصيروا إلى منازلهم؛ إمَّا إلى نعيم مقيم أو إلى عذاب أليم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في ميميَّته:

فلله ذاك الموقـفُ الأعـظمُ

كموقف يوم العرض بل ذاك أعظمُ

ولا ريب في عِظم يوم العرض، يقول الله تعالى: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾[١]، ويقول سبحانه: ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨ ﴾[٢].

ففي ذلك اليوم العظيم يجمع الله جميعَ العباد، كما قال سبحانه: ﴿ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ ﴾[٥].

ويستوي في هذا الجمع الأوَّلون والآخرون، فالكلُّ مجموع إلى ذلك الميقات العظيم ﴿ قُلۡ إِنَّ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٧.
(٤) سورة التغابن، الآية: ٩.
(٥) سورة هود، الآية: ١٠٣.

ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾﴾[١].

ولن يتخلَّف عن هذا الجمع أحدٌ، مَن هلكوا في أجواء الفضاء، ومَن ضلُّوا في أعماق الأرض، ومَن أكلتهم الطيورُ والسِّباع، الكلُّ سيُجمعُ ولا مَفَرَّ، قال تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾[٤].

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٤٩، ٥٠.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.
(٤) سورة مريم، الآيات: ٩٣ ـ ٩٥.

وسيُجمعون على أرض غير هذه الأرض، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[١]، وقد بيَّن لنا الرسولُ ﷺ صفة هذه الأرض التي يُجمع عليها الناس، ففي صحيح البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « يُحشرُ الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرصة النَّقيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد »[٢] أي: على أرض مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ولا جبال ولا صخور، وليس فيها علامةٌ سكنى أو بناء.

ويُجمعون حُفاةً لا نعال عليهم، عُراةً لا لباس عليهم، غُرْلاً أي غير مختونين، ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٨.

(٢) صحيح البخاري (٦٥٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٠).

النَّبيَّ ﷺ قال: ((إنَّكم محشورون حُفاةً عُراةً غُرلاً، ثم قرأ:
﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[1]))[2].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنَّها لَمَّا سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: ((يُحشر الناسُ يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرلاً)) قالت: يا رسول الله، الرِّجال والنساء جميعاً ينظر بعضُهم إلى بعض؟ قال: ((يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعض))[3].

وفي ذلك اليوم تدنو الشمسُ من الخلائق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فلا ظلَّ في ذلك اليوم إلاَّ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٢) صحيح البخاري (٣٣٤٩)، وصحيح مسلم (٢٨٦٠).
(٣) صحيح البخاري (٦٥٢٧)، وصحيح مسلم (٢٨٥٩).

ظلُّ عرش الرحمن، فمن مستظلٍّ بظلِّ العرش، ومن مُضحٍ بحرِّ الشمس، قد صهرته واشتدَّ فيها كربُه وأقلقته، وقد ازدحمت الأمم وتضايقت ودفع بعضُهم بعضاً، واختلفت الأقدامُ وانقطعت الأعناق من العطش، قد اجتمع عليهم في موقفهم حرُّ الشمس مع وَهَج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم، ففاض العرقُ منهم على وجه الأرض، ثم على أقدامهم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربِّهم من السعادة والشقاء، فمنهم من يبلغ العرقُ منكبيه وحقويه، ومنهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من قد ألجمه العرقُ إلجاماً(١)، نسأل الله العافية والسلامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَعرَقُ الناسُ يوم القيامة حتى يذهبَ عرقُهم في

---

(١) انظر التذكرة للقرطبي (٣٥٧/١).

الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم ›› رواه البخاري[١].

وعن المقداد بن الأسود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ‹‹ تدنى الشمسُ يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كقدر ميل، فيكون الناسُ على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً ››، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه[٢].

ويكون وقوفهم في يوم مقداره خمسون ألف سنة، قال الله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾[٣]،

(١) صحيح البخاري (٦٥٣٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٤).

(٣) سورة المعارج، الآية: ٤.

وفي صحيح مسلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((ما من صاحب ذهب ولا فضَّة لا يُؤدِّي منها حقَّها إلاَّ إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمي عليها في نار جهنَّم، فيُكوى بها جنبُه وجبينُه وظهرُه، كلَّما برَدت أُعيدَت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيلَه إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النار))[١].

ويهوِّن الله أمرَ الوقوف على أهل الإيمان، نسأل الله الكريم من فضله، ففي المستدرك للحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يومُ القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر))[٢].

ويُظلُّهم الله سبحانه في ظلِّه الظليل يوم لا ظلَّ

---

(١) صحيح مسلم (٩٨٧).
(٢) المستدرك (٨٤/١)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٨١٩٣).

إلاَّ ظلُّه، ويقول سبحانه في ذلك الموقف العظيم: ((أين المتحابُّون بجلالي، اليوم أُظلُّهم في ظلِّي، يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلِّي))(١).

وفي ذلك اليوم يفزَعُ الناسُ إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة عند الله في أن يبدأ في القضاء والحكم بين العباد، فيعتذرون إلاَّ نبيّنا محمداً ﷺ، فإنَّه يقول: أنا لها، فيذهبُ ويَخرُّ ساجداً تحت العرش لربِّ العالمين، ويفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبله ثم يقول له: ارفع رأسَك وسَلْ تُعطَ، واشفع تشفَّع، وحينئذ يجيء الربُّ جلَّ وعزَّ للفصل بين العباد.

قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ

(١) صحيح مسلم (٢٥٦٦).

ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ﴾[(١)].

تذكَّر يــوم تأتــي الله فــرداً

وقد نُصبــت موازينُ القضاء

وهُتِّكت السُّتور عن المعاصي

وجاء الذنبُ منكشف الغطاء[(٢)].

فتفكَّر في هذا اليوم الذي وُصف لك، وفي هذا الحال الذي حُدِّثتَ عنه، وأعِدَّ له عدَّته، وعليك بتقوى الله، فإنَّها خيرُ زاد، وقد قال الله تعالى في ختام آيات الحج ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾[(٣)].

جعلنا الله وإيَّاكم من عباده المتَّقين، وأعاذنا

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) انظر البيتين في التذكرة للقرطبي (١٧/٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

جميعاً من خزي يوم الدِّين، وجعلنا بمنِّه وكرمه يوم الفزَع من الآمنين.

* * *

١٠ ـ الحجُّ والرابطة الإسلامية

إنَّ من مجالات الحجِّ المباركة في تهذيب النفوس ما يشهده الحاجُّ في يوم عرفة من تجمُّع عظيم وتجمهر كبير، بل هو أعظمُ تجمُّع إسلاميٍّ، وفي هذا التجمُّع الإسلامي الكبير وكذا في بقيَّة المشاعر يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، فيتعارفون ويتناصحون، ويتعرَّف بعضُهم على أحوال بعض، فيتشاركون في الأفراح والمسرَّات، كما يُشارك بعضُهم بعضاً في آلامه ويُرشده إلى ما ينبغي له فعله، ويتعاونون جميعاً على البرِّ والتقوى، كما أمرهم الله سبحانه بذلك.

وفي هذا اليوم المبارك يوم عرفة يكثُر الحجيجُ من قول لا إله إلاَّ الله، فهي خيرُ ما يُقال في هذا اليوم، بل هي خير الكلمات على الإطلاق وأحبُّها إلى الله، وقد ثبت في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((

خيرُ الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وخيرُ ما قلته أنا والنبيُّون من قبلي لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير))[١].

وفي هذا إشارةٌ عظيمةٌ إلى أنَّ اجتماعَ المسلمين لا يكون إلاَّ على التوحيد لله والمتابعة للرسول ﷺ؛ إذ بهما تذوب الأهواءُ وتتبدَّد العداوةُ والبغضاء، وتلتقي القلوبُ وتجتمع الكلمة وتتَّحدُ الصفوف، وكلَّما ضعُف استمساكُهم بهذه الكلمة ضعُف حظُّهم من الاجتماع والألفة بحسب ذلك.

ثمَّ إنَّ هذه الجموعَ الغفيرةَ على اختلاف ألوانهم وتباين ألسنتهم وتباعد بلدانهم قد اجتمعوا على مقصَد واحد وغاية واحدة، تتَّضح من خلال هذه الكلمة التي يهتفون بها ويُردِّدونها، فالذي جمعهم هو

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٨٥)، وحسنه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٨،٧).

توحيدُ الله والإيمانُ به، والذي ألَّف بينهم هو الخضوعُ لله والتذلُّلُ بين يديه رغَباً ورهباً، رجاءً وخوفاً، حُبًّا وطمعاً.

فكلمة التوحيد ((لا إله إلاَّ الله)) هي الرابطةُ الحقيقيَّةُ التي اجتمع عليها أهلُ دين الإسلام، فعليها يُوالون ويُعادون، وبها يُحبُّون ويُبغضون، وبسببها أصبح المجتمعُ المسلم كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص يشدُّ بعضُه بعضاً.

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في كتابه أضواء البيان: ((والحاصلُ أنَّ الرابطة الحقيقيَّة التي تجمع المفترقَ وتؤَلِّفُ المختلفَ هي رابطةُ لا إله إلاَّ الله، ألا ترى أنَّ هذه الرابطة التي تجمع المجتمعَ الإسلاميَّ كلَّه كأنَّه جسدٌ واحدٌ، وتجعله كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً عطفت قلوب حملة العرش ومَن حوله من الملائكة على بني

آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ ﴾[1].

فقد أشار تعالى إلى أنَّ الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومَن حوله وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم، إنَّما هي الإيمان بالله جلَّ وعلا.

(١) سورة غافر، الآيات: ٧ ـ ٩.

إلى أن قال رحمه الله: وبالجملة فلا خلاف بين المسلمين أنَّ الرابطة التي تربطُ أفرادَ أهل الأرض بعضهم ببعض وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة لا إله إلاَّ الله، فلا يجوز البتة النداءُ برابطة غيرها))[١] اهـ.

وتقريراً لهذا المعنى العظيم وتأكيداً عليه قال النَّبيُّ ﷺ في خُطبته بمنى يوم النحر: ((يا أيُّها الناس، ألا إنَّ ربَّكم عزَّ وجلَّ واحدٌ، ألا وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على عجمي، ألا لا فضل لأسود على أحمر إلاَّ بالتقوى، أَبَلَّغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهدُ الغائبَ)) رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح[٢].

ومن منافع الحجِّ العظيمة تقوية هذه الرابطة

---

(١) أضواء البيان (٤٤٧/٣، ٤٤٨).
(٢) المسند (٢٣٤٨٩).

وتوثيق هذه الصلة فالربُّ المعبود واحد، والقبلة المتَّجه إليها واحدة، والرسول المتَّبع واحد، ولباس الإحرام، ومشاعر الحجِّ وأعماله واحدة، ومكان تجمع المسلمين وزمانه واحد، وشعار الجميع ((لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيك)) خضوعاً واستكانةً وانقياداً وامتثالاً، فأيُّ رابطة أوثقُ من هذه، وأيُّ صلة أعظمُ من هذه الصلة.

ألا فليَعِ المسلمون ذلك، وليحمدوا ربَّهم على هذا الوشاج المبارك والوفاق الكريم، والحب والإخاء، ولْيَسْعَ كلُّ واحد منهم في تحقيق كلِّ ما يقوِّي هذه الصلة وينميها، وليبتعدوا عن كلِّ أمر يضعفها ويوهيها، ومن الدعوات الثابتة ((اللَّهم أصلح ذات بيننا وألِّف بين قلوبنا واهدنا سُبُل السلام وأخرجنا من الظلمات إلى النور))، وليطرح الجميعُ العصبيات العرقية، والشعارات القومية، والنَّعرات

الجاهلية، والتحزبات الضيقة.

روى أبو داود وغيرُه بإسناد صحيح أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((إنَّ الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهليَّة وفخرها بالآباء، مؤمنٌ تقيٌّ أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، لَيدَعنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام إنَّما هم فَحْمٌ من فَحْم جهنَّم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعَلان التي تدفع بأنفها النَّتَن))[١].

وفي المسند للإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: ((انظر، فإنَّك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلاَّ أن تفضله بتقوى))[٢].

ثمَّ إنَّ من استطال على غيره بنسب أو غيره بحقٍّ فقد افتخر، وإن استطال على غيره بغير حقٍّ

---

(١) سنن أبي داود (٥١١٦)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٧٨٧).

(٢) المسند (٢١٤٠٧).

فقد بغى، والفخرُ والبغيُ كلاهما محرَّم، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((إنِّي أوحي إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحد على أحد))[١].

فنهى سبحانه فيما أوحاه إلى نبيِّه ﷺ عن نوعي الفخر والبغي اللذين هما استطالة على الخلق، فمَن استطال بحقٍّ فقد افتخر، ومن استطال بغير حقٍّ فقد بغى، ولا يحلُّ هذا ولا ذاك.

نعوذ بالله من الفخر والخيلاء، ومن البغي والظلم، ونعوذ به من كلِّ خطيئة وإثم ونسأله سبحانه أن يجمع المسلمين على البر والتقوى، وأن يصلح ذات بينهم وأن يؤلِّف بين قلوبهم وأن يهديهم سبل السلام، وأن يوحِّد صفوفَهم وأن يجمع كلمتهم،

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

وأن يُبطل كيدَ عدوِّهم، إنَّه سبحانه سميع مجيب.

* * *

١١ ـ الحجُّ وزيادةُ الإيمان

إنَّ في الحجِّ مجالاً واسعاً لإصلاح النفوس وتهذيب القلوب وزيادة الإيمان، وكم في الحجِّ من الدروس الرائعة والعبر المؤثِّرة في إقبال القلوب على الله، وشدَّة رغبها ورهبها ورجائها وخوفها، وكثرة رجوعها وإنابتها، فكم من دمعة صادقة في الحجِّ أُريقت، وكم من توبة نصوح قُبلت، وكم من عثرة أُقيلت، وكم من خطيئةٍ حُطَّتْ، وكم من دعاء خاشع أجيب، وكم من رقبة من النار أُعتقت.

وعندما نتأمَّل نصوصَ الكتاب والسنَّة المتعلِّقة بالحجِّ نجدُ فيها من الضوابط العظيمة والتوجيهات الحكيمة التي تحقِّق للعبد صلاحاً وزكاءً في حجِّه، بل في حياته كلِّها، كقوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ

يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ ﴾[1].

فكم في هذه النواهي ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾ من دعوة وتوجيه إلى كبح جماح النفس والحدِّ من ميلها إلى رغباتها وشهواتها، وكم في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ ﴾ من دعوة إلى المسارعة في فعل الخيرات والمسابقة لأداء الطاعات، وكم في قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ من دعوة لأخذ الأهبة والاستعداد بالتَّزوُّد ليوم المعاد، كشأن المسافر الذي يأخذ زاده معه في سفره.

قال ابن القيم رحمه الله: « الناسُ منذ خُلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلاَّ في الجنَّة أو النار، والعاقل يعلم أنَّ السفرَ مبنيٌّ على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

المشقَّة وركوب الأخطار، ومن المحال عادةً أن يطلب فيه نعيماً ولذَّةً وراحةً، إنَّما ذلك بعد انتهاء السفر))[١]. اهـ.

إلاَّ أنَّ العبدَ يأتيه في هذه الحياة من الصوارف والشواغل والمُلهيات ما يشغله عن أخذ الزاد ليوم المعاد، ويذهبُ جدةَ إيمانه وجماله وحيويته، بل لقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ الإيمانَ قد يَخْلَقُ في جوف الإنسان، فيحتاج العبدُ إلى تجديده والسعي في تقويته، روى الحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ الإيمانَ لَيَخلَقُ في جوف أحدكم كما يَخلَقُ الثوبُ، فاسألوا الله أن يُجدِّدَ الإيمانَ في قلوبكم))[٢]، فوصف

---

(١) الفوائد (ص:١٩٠).

(٢) المستدرك (٤/١)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في =

عليه الصلاة والسلام الإيمانَ بأنَّه يَخلَق كما يخلَق الثوب، أي: يبلى ويضعف ويدخله الوهن والنقص من جرَّاء ما يلقاه العبدُ في هذه الدنيا من فتن ومُلهيات، وما يقع فيه من معاصٍ وذنوب، وأرشد عليه الصلاةُ والسلام إلى تعاهد الإيمان والعمل على تقويته، وسؤال الله زيادته وثباته، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨ ﴾[1]، فمن الخير للعبد أن ينصح لنفسه في إيمانه الذي هو أغلى شيء لديه وأثمنُ شيء عنده، وخيرُ زاد يلقى به ربَّه سبحانه وتعالى.

ومجالات تقوية الإيمان وأسبابُ زيادته عديدةٌ

صحيح الجامع (١٥٩٠).

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ٧، ٨.

ومتنوِّعةٌ، ومن هذه المجالات العظيمة الحجُّ، فهو يهدمُ ما كان قبله، والمبرورُ منه ليس له جزاء إلاَّ الجنَّة،

ومن أدَّاه بلا رفث ولا فسوق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه، وهو ينفي الذنوب كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد، كما صحَّت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

وكم كان الحجُّ نقطة تحوُّلٍ في حياة كثير من الناس من سيِّءٍ إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، والشواهدُ على هذا والوقائعُ المؤكّدةُ له تفوق الحصر.

وكم من حاجٍّ تحرَّى مواطنَ الإجابة في الحجِّ ومدَّ يديه إلى ربِّه خاشعاً متذلّلاً طامعاً في فضله العظيم، وسأله أن يُجدِّد الإيمانَ في قلبه وأن يثبته عليه، وأن يصرفَ عنه الفتنَ ما ظهر منها وما

بطن، وأن يُصلح له دينَه ودنياه وآخرته، وأن يُزيّنه بزينة الإيمان، وأن يجعله من الهُداة المهتدين.

والله عزَّ وجلَّ لا يُخيبُ عبداً دعاه ولا يردُّ عبداً ناجاه، وهو القائلُ سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[١]، وثبت في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((الحُجَّاجُ والعُمَّار وفدُ الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم))[٢].

فحريٌّ بمَن أكرمه الله بالحجِّ أن يكون في حجِّه مخبتاً لربِّه متواضعاً لجَنَابه، منكسراً بين يديه، يرجو رحمتَه ومغفرتَه ويخاف عذابه ومقتَه، تائباً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) رواه البزار في مسنده كما في كشف الأستار (١١٥٣)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في السلسلة الصحيحة (١٨٢٠).

من كلِّ ذنب اكتسبته يداه، ومن كلِّ خطيئة مشت إليها قدماه، مُكثراً من الذِّكر والدعاء والاستغفار والتضرُّع؛ لينقلب من حجِّه خير منقلب، وليعودَ إلى أهله وبلده على خير حال، فيبدأ صفحةً جديدة في حياته، عامرةً بالطاعة والصلاح والاستقامة، بقلب مطمئنٍّ ونفس منيبة وفؤاد مخبت، سائلاً ربَّه الثبات على الإيمان والسلامة من الفتن.

أليس من الجدير بالحاجِّ أن يتنبَّه لهذا الأمر الجلل العظيم، ليربحَ من حجِّه ويستفيد، ولا سيما مع كثرة الأمور التي تضعف الإيمان في هذه الحياة، فما بالنا لا نستفيد من هذا الباب المبارك لتقويته وتتميمه وتكميله، فإنَّ الحجَّ إيمانٌ، وما يقع فيه من مواهب وكمالات كلُّ ذلك كمالٌ في الإيمان وقوَّة.

والعبدُ المؤمن الموَفَّق لا يزال يسعى في تحقيق أمرين عظيمين ومَقصَدين جليلَين:

أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه والتحقق بها علماً وعملاً.

والثاني: السعي في دفع ما يُنافيه وينقضه أو ينقصه من الفتن الظاهرة والباطنة، ويُداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرَّأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

وتأمَّل هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾[1]، فذكر سبحانه الأمرين دفع المفسدات والمنقصات، والسعي في تحصيل الخيرات والكمالات.

نسأل الله جلَّ وعلا أن يُصلحَ لنا جميعاً ديننا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كلِّ خير، والموت راحة لنا من كلِّ شرٍّ، وأن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هُداةً مهتدين غير ضالِّين ولا مُضلِّين، إنَّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

١٢ ـ الحجُّ وإرغام الشيطان

روى الإمام مالك ـ رحمه الله ـ في موطئه عن طلحة بن عبيد الله بن كَريز: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما رُئي الشيطانُ يوماً هو أصغرُ ولا أدحرُ ولا أحقرُ ولا أغيظُ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلاَّ لِمَا يرى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام»[1]، وهذا حديث مرسل.

وفي نصوص الشرع شواهد عديدة تدلُّ على صحَّة معناه، فإنَّ الشيطانَ ـ وما من ريب في ذلك ـ يغيظُه ويسوؤه تنزُّل الرحمة والمغفرة على عباد الله، وصفحُه وعفوُه عنهم سبحانه، وعتقُه لرقابهم من النار أعاذنا الله والمؤمنين منه.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) الموطأ (١٢٦٩).

قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطانُ يبكي، فيقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار))[١].

ولهذا فإنَّ عدوَّ الله حريصٌ غاية الحرص على إفساد حجِّ الإنسان وتفويت ثوابه عليه من خلال سبل عديدة ومسالك متنوِّعة بدءً من أوَّل مسير الإنسان وانطلاقه إلى الحجِّ، ومروراً بجميع أعماله وسائر مناسكه ويجند لذلك جنوده ويُهيِّئ لذلك عتاده.

يقول الإمام مجاهد بن جبر رحمه الله: ((ما من رفقة تخرج إلى مكة إلاَّ جهَّز معهم إبليس مثلَ عُدَّتهم)) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره[٢].

---

(١) صحيح مسلم (٨١).
(٢) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان (١٠٩/١).

ويشهد لهذا قول الله تعالى عن عدوِّه إبليس: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[١].

قال عون بن عبد الله رحمه الله: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: «طريق مكة»، وهذا بلا ريب من صراط الله المستقيم الموصل إلى رضوانه والمفضي إلى جنَّة النعيم، والصراط معناه أوسعُ من هذا.

ولذا قال ابن جرير رحمه الله: «والذي قاله عونٌ وإن كان من صراط الله المستقيم، فليس هو الصراطَ كلَّه، وإنَّما أخبر عدوُّ الله أنَّه يقعد لهم

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦، ١٧.

صراطَ الله المستقيم، ولم يُخصِّص منه شيئاً دون شيء؛ لأنَّ الخبيث لا يألو عباد الله الصدَّ عن كلِّ ما كان لهم قُربةٌ إلى الله))[١]. اهـ.

وفي المسند للإمام أحمد من حديث سَبْرَة بن فاكِه ﵁ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّ الشيطان قعد لابن آدمَ بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال له: أتُسلم وتذَرُ دينَك ودينَ آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلَم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال أتُهاجر وتَذَرُ أرضَك وسماءَك؟ وإنَّما مثَلُ المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل، قال: فعصاه فهاجر، قال: ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جَهْدُ النَّفْس والمال، فتُقاتِلُ فتُقتَلُ فتُنكَحُ المرأةُ ويُقسَمُ المالُ؟ قال: فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمَن فعل ذلك منهم فمات كان حقًّا على الله أن يُدخلَه

---

(١) جامع البيان (٤٤٤/٥).

الجنَّة، أو قُتل كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنَّة، وإن غرِقَ كان حقًّا على الله أن يُدخلَه الجنَّة، أو وَقَصَتْهُ دابَّةٌ كان حقًّا على الله أن يُدخلَه الجنَّة))[١].

والشاهد من هذا الحديث أنَّ الشيطان جالسٌ للإنسان في كلِّ طريق، وهو أحرصُ ما يكون عليه عندما يهمُّ بالخير أو يدخلُ فيه، فهو يشتدُّ عليه حينئذ ليقطعه عنه.

وقد ثبت في الصحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((إنَّ عفريتاً من الجنِّ تفلَّت عليَّ البارحة ليقطعَ عليَّ صلاتي))[٢]، وكلَّما كان الفعلُ أنفعَ للعبد وأحبَّ إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر، فهو عدوٌّ لدودٌ للمؤمنين، لا همَّ له ولا غاية إلاَّ إفسادُ عقائدهم وهدمُ

---

(١) المسند (١٥٩٥٨)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٦٥٢).

(٢) صحيح البخاري (٤٦١)، وصحيح مسلم (٥٤١).

إيمانهم، وخلخلةُ يقينهم، وصرْفهم عن السبيل المفضية إلى رضوان الله والجنَّة.

ولهذا فإنَّ الله حذَّرنا منه أشدَّ التحذير، وبيَّن لنا أخطارَه وعواقبَ اتِّباعه الوخيمة، وأنَّه عدوٌّ للمؤمنين، وأمرهم أن يتَّخذوه عدوًّا، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾[3]، **وقال تعالى:** ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٣) سورة النور، الآية: ٢١.

وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ ﴾[1].

قال ابن الجوزي رحمه الله: « فالواجبُ على العاقل أن يأخذَ حذرَه من هذا العدوِّ الذي قد أبان عدواتَه من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمرَه ونفسَه في فساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله بالحذر منه ... »[2]، ثم ذكر نصوصاً عديدة في التحذير منه ومن كيده.

والآياتُ في التحذير منه ومن كيده كثيرة، والعبدُ لا وقاية له من الشيطان إلاَّ بالالتجاء إلى الله والتعوُّذ به من شرِّه وملازمة ذكره والمحافظة على طاعته، ومَن استعاذ بالله أعاذه الله وحفظَه ووقاه.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(٢) تلبيس إبليس (ص:٢٣).

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾[١]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

ومَن لازَمَ ذكرَ الله كان في حصنٍ من الشيطان وفي حرزٍ من شرِّه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[٣].

روى الإمام أحمد في مسنده عن النَّبيِّ ﷺ أنَّ يحيى ابن زكريا عليهما السلام قال لقومه: ((...

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

(٣) سورة ، الآية: ٣٦.

وآمرُكم بذكر الله كثيراً، وإنَّ مثلَ ذلك كمثل رجل طلبه العدوُّ سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً، فتحصَّن فيه،
وإنَّ العبدَ أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله))[١].

والشيطانُ لا سلطان له على أهل الإيمان الملتجئين إلى الله المعتمدين عليه سبحانه، فإنَّ اللهَ يحفظُهم منه ويَصرفُ عنهم كيدَه وشرَّه، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ

---

(١) المسند (١٧٨٠٠)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٧٢٤).

مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[١].

فبيَّن سبحانه في هذه الآية السببَ الأقوى في دفع الشيطان، وهو التحلّي بحلية الإيمان والتوكل على الله، فإنَّ الشيطان ليس له قدرةٌ على التسلُّط على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكّلون.

والفقه في دين الله حرزٌ من الشيطان؛ لأنَّ العلمَ الشرعيَّ نورٌ لصاحبه، ومَن تبصَّر بنور العلم وعرف مصايد الشيطان وحبائلَه ووسائلَه وطرائقَه، وعرف نهاية أتباعه ومآل أوليائه، حذره أشدَّ الحذر، واعتصم بالله منه واستعاذ به سبحانه من شرِّه، وسلك صراط الله المستقيم الذين لا خوف على أهله ولا هم يحزنون.

فنسأل الله أن يعيذنا وإيَّاكم من الشيطان الرجيم،

---

(١) سورة ، الآيات: ٩٨ ـ ١٠٠.

وأن يهدينا جميعاً صراطَه المستقيم، إنَّه سميع مجيب.

* * *

١٣ ـ الحج والاستغفار

كثيراً ما يأمر الله بالاستغفار، ولا سيما في نهاية الطاعة وعند إتمام العبادة، قال الله تعالى في آيات الحجِّ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩ ﴾[1].

والمراد بالإفاضة هنا أي إلى منى، حيث يقوم الحاجُّ بإكمال أعمال الحجِّ التي هي آخر أعماله، وأمر سبحانه في هذه الأثناء بملازمة الاستغفار؛ ليكون جابراً لما حصل من العبد من نقص، ولما وقع منه من تقصير.

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: ((والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

وهو رمي الجمار، وذبحُ الهدايا، والطوافُ والسعيُ، والمبيتُ بمنى ليالي التشريق، وتكميلُ باقي المناسك، ولَمَّا كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكره، والمذكوراتُ آخرُ المناسك أمر الله تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذِكْرُ اللهِ شُكْرُ اللهِ على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنَّة الجسيمة، وهكذا ينبغي للعبد كلَّما فرغ من عبادة أن يستغفرَ الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمَن يرى أنَّه قد أكملَ العبادةَ ومنَّ بها على ربِّه، وجعلت له محلاً ومنزلةً رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل كما أنَّ الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أُخر)). اهـ.

وقد كان من هدي النَّبيِّ ﷺ ختمُ الأعمال

الصالحة بالاستغفار، ولهذا ثبت في صحيح مسلم: ((أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً))[(١)]، وورد ختم صلاة الليل بالاستغفار، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾[(٢)]، وكان يختم مجالسه بالاستغفار، روى أبو داود عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك))[(٣)]، وروى أبو داود عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((مَن جلس في مجلس فكثر فيه لغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللَّهمَّ ربَّنا وبحمدك، أشهد أن

---

(١) صحيح مسلم (٥٩١).
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧.
(٣) سنن أبي داود (٤٨٥٩)، وصحَّحه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الترغيب (١٥١٧).

لا إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلاَّ غفر له ما كان في مجلسه ذلك ››[١].

بل لقد ختم عليه الصلاة والسلام حياتَه العامرةَ بتحقيق العبودية وكمال الطاعة بالاستغفار، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنَّها سمعت رسول الله ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مُسنِدٌ إليها ظهرَه يقول: ‹‹ اللَّهمَّ اغفر لي وارحَمني وألحِقنِي بالرَّفيق الأعلى ››[٢] مع ملازمة عظيمة منه للاستغفار في أيام حياته الزكيَّة.

روى مسلم في صحيحه عن الأغر المزني رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ‹‹ إنَّه لَيُغانُّ على قلبي،

---

(١) سنن أبي داود (٤٨٥٨)، وسنن الترمذي (٣٤٣٣)، وصحَّحه الألباني - رحمه الله - في صحيح الترغيب (١٥١٦).

(٢) صحيح البخاري (٤٤٤٠).

وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرَّة))[١].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((والله إنِّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرَّة))[٢].

وروى أبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كنَّا نعدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرَّة: ربِّ اغفر لي وتُب عليَّ، إنَّك أنت التوَّاب الرحيم))[٣].

وروى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الناسَ فقال: ((يا أيُّها الناس توبوا إلى

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٢).
(٢) صحيح البخاري (٦٣٠٨).
(٣) سنن أبي داود (١٥١٦)، وسنن الترمذي (٣٤٣٤)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في الصحيحة (٥٥٦).

الله، فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرَّة))[١].

وثبت عنه في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعريِّ ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يدعو بهذا الدعاء: ((اللَّهمَّ اغفر لي خطيئتي وجَهلِي، وإسرافِي فِي أَمرِي، وما أنت أعْلمُ به مِنِّي، اللّهُمَّ اغفِر لي جِدِّي وهزْلِي، وخطئِي وعمدي، وكلّ ذلك عندي، اللَّهمَّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منّي، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كلّ شيءٍ قدير))[٢].

وثبت في الاستغفار صيغٌ كثيرة ، وكان كثيرَ الاستغفار صلوات الله وسلامه عليه، حتى قال أبو هريرة ﵁: ((ما رأيت أحداً أكثرَ من أن يقول

---

(١) النسائي في الكبرى (١٠٢٦٥)، وهو عند مسلم من حديث الأغر (٢٠٧٦/٤) بلفظ مقارب.
(٢) صحيح مسلم (٢٧١٩).

أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله ﷺ))[١].

هذا مع أنَّه ﷺ قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ ﴾[٢].

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تتفطَّر رجلاه، فقلت له: يا رسول الله، أتصنعُ هذا، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً))[٣].

وثمارُ الاستغفار وبركاته على أهله لا تُعدُّ ولا

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (١٠٢٨٨)، وصحيح ابن حبان (٩٢٨).
(٢) سورة الفتح، الآية: ١، ٢.
(٣) صحيح البخاري (٤٨٣٧)، وصحيح مسلم (٢٨٢٠).

تُحصى في تتميم أعمالهم وجبر تقصيرهم، ورفعة مقامهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، من العمل الناقص إلى العمل التامّ، ويرفع العبدُ من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل، فإنَّ العابد لله والعارف بالله في كلِّ يوم، بل في كلِّ ساعة، بل في كلّ لحظة يزداد علماً بالله وبصيرةً في دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك في طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله. ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية وإعطائها حقّها. فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطرٌّ إليه دائماً في الأقوال والأحوال، في الغوائب والمشاهد، لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرّات، وطلب الزيادة في القوّة

في الأعمال القلبية والبدنيّة اليقينية الإيمانية))[١].

اهـ.

وقد أعدَّ اللهُ في الدنيا والآخرة للمستغفرين من عظيم أجوره وكريم مواهبه وجزيل عطاياه ما لا يمكن عدُّه والإحاطةُ به. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[٣]، وقال تعالى عن

نوح عليه السلام: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾

(١) مجموع الفتاوى (٦٩٦/١١).

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾[١].

روى ابن ماجة في سننه عن عبد الله بن بشر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((طوبى لِمَن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً))[٢].

نسأل اللهَ جلَّ وعلا أن يجعلنا من عباده التائبين الأوّابين المستغفرين وأن يهدينا سواء السبيل.

وختاماً أسأل الله العليَّ القدير أن يُوفِّق المسلمين لحسن الإفادة من حجِّهم إلى بيته العتيق، وأن يتقبَّل عملَهم بقبول حسن، وأن يغفرَ لنا أجمعين، وأن يجعلنا من عباده المتَّقين الذين يستمعون القولَ

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

(٢) سنن ابن ماجه (٣٨١٨)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٣٩٣٠).

فيتَّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *
*

فهرس الموضوعات